آفاق المعرفة

٢٥٥

رحيــل «الملائكة»

د. محمد يحيى خراط *

في حزيران الماضي (٢٠٠٧ م) غيب الموت رائدة الشعر العربي الحديث الشاعرة العربية العراقية الأصل نازك الملائكة. غابت بهدوء - كما كانت تعيش حياتها دائماً.

وُلدت نازك الملائكة في بغداد سنة ١٩٢٣ في بيت علم وأدب، فأمها الشاعرة سلمى عبد الرزاق صاحبة ديوان «أنشودة المجد»، ووالدها الشاعر جعفر عبد الرزاق عمل مدرساً للغة العربية في بغداد لأكثر من ربع قرن.



* أديب وباحث وصيدلي.

العمل الفني: الفنان رشيد شمة.

درســت نازك اللغـــة العربية في بغداد ثم التحقــت بالجامعة واستطاعــت أن تحصل على منحة دراسية لمتابعة دراستها في جامعة برنستــون في الولايــات المتحـــدة الأمريكية، فحصلت علـــى شهادة الدكتـــوراة في الأدب المقارن حيث أهلتها هـــذه الشهادة للتدريس في جامعة بغـــداد وجامعة البصرة ثم جامعة الكويت، وبعدها غـــادرت إلى القاهرة حيث كان مستقرها الأخير.

أحبت نازك الموسيقى منذ نعومة أظفارها، فتعلمت العزف على العود واستطاعت بواسطة معرفتها العميقة بالأنغام الموسيقية أن تمتلك حساً مرهفاً بإيقاع الكلمة وموسيقاها.

وإذا عدنا إلى طفولتهـــا الأولى نرى أنها قد وجدت في مكتبـــة أبيها الزاخرة بدواوين الشعر وأمهات كتـــب الأدب ما يروي ظمأها إلى الاطـــلاع والمعرفة، فأقبلت تنهل من هذه المكتبة وساعدها والدها في ذلك، فلقد كتبت عن تكوينهـــا الثقافي في بداية حياتها الأدبية تقـــول: «في عامـــي ١٩٣٩- ١٩٤٠ اتجهـــتُ اتجاهاً شديداً مبالغـــاً فيه إلى دراسة الأدب القـــديم، وخاصة النحـــو، فأعطاني أبي كتباً مثل «شـــرح شواهد ابن عقيـــل للجرجاوي، و«فقـــه اللغـــة» للثعالبـــي و«خزانـــة الأدب» للبغدادي، وعشرات من الكتب مثلها».

وقد كتبـــت في يومياتها يـــوم ٢٦ شباط ١٩٤٠ ما يلـــي: «أشكو من فداحة المجادلات بين الكوفيين والبصريـــين وأقول: على أيهم أعقـــد؟! أعَلَـــى سيبويه أم علـــى الكسائي؟! ثم هنالك ابن هشام وأبـــو حيان والسيوطي والسهيلي وابن خروف والزجَّاج والأصمعي.. ثم كَتَبْتُ صفحات طويلة حول نقاط تفصيلية في معركة نحويـــة لم أعد الآن أطيق قراءتها، وكنت في تلـــك الأيام ألتهمهـــا التهاماً. وقد قَرَأْتُ من كتب النحو إذ ذاك «شذور الذهب» لابـــن هشـــام» و«حاشية الشيـــخ عبادة على شذور الذهب» قراءة ودراسة، كما استظهرت جانباً كبيراً من شواهد ابن عقيل مع شروحها وإعرابها اعتماداً على ابن عقيل، وقد قَفَزَتْ بي هـــذه الدراسة إلى مستـــوى عالٍ جداً في النحو حتى برزت بروزاً مرموقاً في المدرسة.

وفي حقـــل الأدب واللغة قرأت عمدة ابن رشيـــق، والمثل السائر، وأدب الكاتب، وخزانة الأدب للبغـــدادي. وممـــا أذكر أننـــي قرأت «البيان والتبيين» في ثمانية أيام، كدت خلالها أُوذي عيني إيذاءً شديـــداً، ولا أذكر الآن أي

جنـون هو الذي دفعني إلى هـذا؟! إلا أنني أرجّح أنها بداية عادتي المتأصلة في القراءة الكثيرة وقياس الحياة بها، فمنذ تلك الفترة بدأت أشعر بالرعب كلما مر بي يوم لم أقرأ فيه ثماني ساعات.



لم تكن قراءة «البيان والتبيين» في ثمانية أيام أمراً هيناً، بل كانت تلك الأيام أيام محنة فظيعة انتهت بمرضٍ كان لابد منه اضطررت معه إلى ترك المطالعة لالتهاب عيني. ومما قرأت «رسالة الغفران»، و«الضرائر»، و«ما يسوغ للشاعر دون الناثر» للآلوسي، وقد أحببته حباً كبيراً، و«شعراء النصرانية» للويس شيخو. وقد حفظت منه مئات من الأبيات الجاهلية وحفظت أخبار حرب البسوس غيباً، وكان أشد ما يمتعني أن أحفظ الأبيات التي من أجلها سمي النابغة، وأفنون التغلبي، والمرقش، وغيرهم، بأسمائهم، والواقع أني بتّ بواسطة هذا الكتاب واسعة الاطلاع على الشعر الجاهليّ، وكانت ثقافتي تعادل ثقافة المتخرجات من الكليات.. ومن بين ما قرأت كتاب «الساق على الساق في ما هو الفرياق» وكنت أستمتع استمتاعاً كبيراً بلغته.

وفي الشعر قرأت ديوان البحتري، وابن زيدون، والبهاء زهير، وابن خفاجة، وابن سهل، مفصلاً، وحفظت لهم كثيراً، كما قرأت كتباً حديثة كثيرة، بينها «عبقرية الشريف

الرضي» لزكي مبــارك، و«تاريخ حياة معدة» لتوفيق الحكيــم، و«مع أبي العلاء في سجنه» لطه حســين، و «أميرة الأندلســ» و«عنترة» لشوقــي.. و«بلــوغ الأرب» للآلوســي.. ومن الدواويــن الحديثة بعض الدواوين العراقية، وديوان «الملاح التائه» لعلي محمود طه».

وعن ولادتها في الثامن والعشرين من آب عام ١٩٢٣ كتبت تقول:

«بغداد في منتصف ليلة من ليالي ١٩٢٣.. وتحت الليل تمتــد المدينة المظلمــة العتيقة مغرقــة في وسن عميــق، لا يقطعه إلا صوت الحرس المتعبين وهــم يسيرون ببطء وضجر في أزقــة المدينة المتلويــة الضيقة، التي تكاد تكــون مظلمة لولا أضــواء الفوانيس القليلة التي كانت مبعثرة في الطرق على غير نظام.

وكانت الليلة حــارة خانقة، فلاذ الأهلون منهــا بالنوم، وأووا إلى سطوح البيوت لائذين بالنسيان والتشاغل، وقــد زاد الظلام عمقاً ورهبــة أن القمر كان في المحــاق فقد كانت الليلة آخر ساعات شهر ذي الحجة من السنة الهجرية.

ولكن بيتاً واحداً من بيوت محلة العاقولية ببغداد كان مستيقظــاً، تتعالى فيه الهمسات والتأوهات، وتسمــع في أبهائه أصوات أقدام السائرين، وتخفق في ظلماته أضواء الفوانيس اليدوية.. وفي إحدى الغــرف الواسعة تعالى صراخ طفلة سمراء ليس في وجهها أية علامة من علامات الجمال أو الذكاء، شهدت الوجود أول مرة هذه الساعة.

بكت الطفلــة وهي تمس أرضــ الوجود أول مــرة، وبقيت تبكي بــكاء صارخاً طويلاً بلغ سمع أبيها الــذي كان ينتظر نبأ قدومها بلهفــة في غرفة مجاورة..ودخلــت فتاة يبدو عليهــا التعــب وقالت وهي تلتقــط أنفاسها «فتاة ..طفلة..لا تبتئس على كل حال ..المهم صحة والدتها ..»

وخرجت ناقلة الخبر، وساد الغرفة سكون عميــق انقطع بعــد لحظات وتعــالى صوت دقــات ساعة بعيــدة، طالمــا دوت فسمعتها المدينة كلها..دقات ساعة «القِشْلة» في بغداد. وأصغى الشــاب الجالس في الغرفة وأحصى الدقات ثم همس في نفســه: الساعة الثانية عشــرة تمامــاً .. .. منتصف الليــل.! والآن تبتــدئ الحياة فصلاً جديداً وعاماً جديداً.. الآن يولــد عام١٣٤٢ الهجري وبمولده ولدت هذه الطفلة.. ابنتي الأولى». وفي صباح اليوم التالي كتب في مفكرته:

«يــوم الأربعاء ٣٠ مــن ذي الحجة ١٣٤١ قبيــل منتصــف الليل بخمســ دقائق ولدت ابنتي نازك».

....

لقد كان لهبوط بطلة هذه القصة الحياة هزة فرح عميق في نفس الوالدين وأسرتيهما وكان السرور شاملاً عامــاً، فوزعت الحلوى وعقر خروف وزع لحمه على الفقراء، وتعالت الزغاريد والأغاني، وكتب الأب قصيدة يحيي بها طفلته ويؤرخ مولدها بهذا الشطر: «نازك جاءت في زمان السرور».

وكانــت قصة اختيار هــذا الاسم التركي لتسميــة الطفلة أنها ولدت عقب الثورة التي قادتهــا الثائرة السورية «نــازك العابد» على السلطات الفرنسية. وكانت الصحف إذ ذاك تطفح بأنبائها، فــرأى جد الطفلة أن تسمى نازك إكراما للثائرة وتيمناً بها وقال: «ستكون ابنتنا نــازك مشهورة كنــازك العابد إن شاء الله».

قالت نــازك الملائكة الشعر منذ طفولتها المبكرة وأجادت فيه وكان لها السبق والريادة في حركــة التجديد وقد ثار جدل طويل حول مــن كان الأول في نظــم القصيدة التي تعتبر الأولى في تلــك الحركة التجديدية، فالبعض ينســب التجديد للشاعر الشــاب بدر شاكر السيــاب، والبعضــ الآخر يقــول إن نازك كانــت الأولى ولكن الذي يهمنا أن نذكره هنا أن شاعرتنــا كانت مجــددة وأنها كانت رائدة في حركة تجديد الشعــر العربي وإنقاذه من القواعــد والقيــود التي جمعهــا الخليل بن أحمد والتي تحاول أن تجعل الشعر يراوح في مكانــه ولا يتحرك منذ مئتي سنة قبل مجيء الإســلام، وبالإضافــة إلى الشعر فقد كتبت نــازك النقد ووضعت الكتــب في هذا المجال الحيوي الجميل، وقد حللت أسباب الحداثة ودافعــت عن وجهة نظرهــا في التجديد في كتابها المشهور (قضايا الشعر المعاصر).

بدأت نــازك حياتها الشعريــة بقصيدة طويلة أسمتها (الموت والإنسان) وكان ديوانها الأول (عاشقة الليل) وقد أصدرته عام ١٩٤٧ وضم قصائد كُتبــت وفق الشكل الكلاسيكي القديم، لكنها من حيث البنية الفنية والمناخات الشعرية والصور والإحساسات جديدة تماماً، وفي عــام ١٩٤٩ أصــدرت الديــوان الثــاني بعنوان (شظايا ورماد) تضمن قصائد جديدة على الشكل الجديد والــذي أُطلق عليه اسم

الشعـــر الحر وهو بالحقيقة شعر لا يخلو من الـــوزن والقافية وإنما بشكل آخر يختلف عن الطريقة القديمة، وفي عـــام ١٩٥٧ أصدرت (قـــرار الموجـــة)، و(شجرة القمـــر) في عام ١٩٦٨، ودراسة نقدية بعنوان (قضايا الشعر المعاصر) في ١٩٦٢، ولها أيضاً من الدراسات (الأدب والغـــزو الفكري) ١٩٦٥، و(الصومعة والشوكـــة الحمـــراء) ١٩٦٥، وسيكولوجيـــة الشعـــر ١٩٩٣ ومحاضـــرات في شعـــر علـــي محمود طـــه ١٩٦٥. كما أصدرت ديوان شعر بعنـــوان (مأساة الحياة وأغنية للإنسان) وهو ملحمـــة شعرية سنـــة ١٩٧٠، ودراسة بعنوان (التجزئة في المجتمع العربي) ١٩٧٤، وديواناً بعنوان(يغـــير البحر ألوانـــه) ١٩٧٧، وديواناً أخر بعنوان (للصلاة والثورة) ١٩٧٨. وتبقى قصيدتهـــا (الكولـــيرا) المؤرخة عـــام ١٩٤٧ إحدى القصائد التـــي اكتسبت شهرة كبيرة، وقصة تلك القصيدة أنه حدث في صيف عام ١٩٤٧ أن حصد وباء الكوليرا الآلاف من أبناء الشعب المصري الشقيق، وكانت كارثة فظيعة ردت عليها شاعرتنا نازك بقصيدة رائعة لها عنوان المرض نفسه، قصيدة ليست كالقصائد التي كانـــت سائدة ذلك الوقت، كانت جديدة في كل المقاييـــس..... مختلفـــة..... إيقاعها غريب عـــن الأذن العربية التي اعتادت ومنذ ألفي عـــام على أوزان الخليـــل، وسرعان ما انتشر خبر القصيـــدة الجديدة «كوليرا نازك الملائكـــة» بين الشباب المثقف واستطاعت أن تؤثـــر على الذائقة الشعريـــة وتنتج ألاف من القصائـــد الشعرية ذات الأثـــواب الجديدة والأشـــكال الزاهية لنستمـــع إلى نازك وهي تشدو برائعتها:

سكن الليل
اصغ إلى وقع صدى الأنات
في عمق الظلمة، تحت الصمت، على
الأموات
صرخات تعلو، تضطرب
حزن يتدفق، يلتهب
يتعثر فيه صدى الآهات

استمرت نازك في كتاباتها الشعرية حتى مطلـــع السبعينيـــات، فلم تواصـــل الرحلة، وانقطعـــت عـــن الكتابـــة الشعريـــة، وبدأت تكتب في قضايـــا سياسيـــة ونقدية واتهمت أنها تراجعت عـــن آرائها السابقة في ضرورة الحداثة ووجوب التطوير، ولنحاول أن نسال: لمـــاذا حاولت نـــازك النكوص عـــن آرائها ولم

تستمر في ثورتهـا على الأساليـب الشعرية القديمة في الوقت الذي استمر فيه الشعراء الرجـال واستطاعوا أن يواصلـوا عطاءهم الشعري..؟ لقد حـاول العديد من الباحثين ومـن عشـاق الشعر أن يجيبوا عـن السؤال المذكـور، بعضهم قـال إن نـازك لم ترتد ولم تتراجـع عن أفكارهـا وإنما وجـدت بعض مدعـي الشعر ممن لم يمتلكوا الموهبة يحاول الانفلات من القيـود الشعرية التي لولاها لم يكن الـكلام شعراً، وأنه لا يجـوز برأيها أن يأتي الشعر خاليـاً من العنصرين الأساسيين -الموهبـة والقيود الشعرية- واللذين لا يحلو الشعـر بدونهما، إذ يكون حينئـذ خالياً من الإيقـاع. والبعض الآخر قال إن نازك لم تعد تجد من المواضيع ما تعبر عنها فسكتت وأنها شاعرة حقـاً لكنها لا تمتلك مـن الشاعرية والإبداع ما امتلكـه السيّاب والبياتي، وحتى فـدوى طوقان التي لم تسجن نفسها في سجن الذاتيـة الفرديـة وإنما عبّرت عـن قضايا شعبها الفلسطيني ولم تتقوقع في شرنقتها كما فعلت نازك، وأرى أن الرأي الثاني متجنٍ على الشاعـرة، ومهما قيل مـن آراء متناقضة في حق الشاعرة الكبيرة، فإنها تبقى بحق نقطة مضيئة في تاريخنا الشعـري والنقدي وإنها أضافت الشيء الكثـير إلى الحركتين مما لا يمكن نكرانه لأي منصف، وهي موهبة شعرية كبيرة وثقافية عربية وريادة لا يمكن نكرانها في مجالات الإبداع والنقد. فلقد كتبت نازك النقد وأثارت في نقدها قضايا كثيرة تستحق الحديث والحوار والتوقـف عندها، كقضية الشاعر واللغة والقافية في الشعر الحديث.

اهتمـت نـازك بالسـيرة الذاتيـة ولها مختارات «من سيرة حياتي وثقافتي» (تقصد سيرتهـا الشخصية)، فلقـد أحبت طفولتها كثيرا وتمنت مـرارا لو تمكنت من العودة إلى تلك الفترة الذهبية الجميلة فكتبت تقول:

لم يـزل مجلسـي عـلـى تـلـي
الـرمـلـي يصغي إلى أناشيد أمـي
لم أزل طـفـلـة سـوى أنـنـي قد
زدت جـهـلاً بـكـنـه عـمـري ونفسي
لـيـتـنـي لم أزل كـمـا كـنـت قـلـبـاً
لـيـس فـيـه إلا الـسـنـا والـنـقـاء
كـل يـوم أبـنـي حـيـاتـي أحـلامـاً
وأنـسـى إذا أتـانـي المـسـاء
ايـه تـل الـرمـاد مـاذا تـرى
أبـقـيـت لي مـن مـدرسـة الأحـلام

انـظـر الآن هــل تــرى في حـيـاتـي
لـمـحـة غـيـر نـشـوة الأوهـــام؟
آه يــا تــلُّ هــا أنــا مـثـلـمـا كـنـت
فــأرجـع فـردوسـي المـفـقـودا
أي كف أثيمة سلبت رملك هذا اجماله المعبودا
كـنـت عـرشـي بـالأمـس يـا تـلـي
الـرمـلـي والآن لـم تـعـد غـيـر تـلّ
كـان شـدو الـطـيـور رجـع أنـاشـيـدي
وكـــان الـنـعـيـم يـتـبـع ظـلـي

ومن أشعارها:

أي مـعـنـى لـطـمـوحـي ورجـائـي
شـهـد المـوت بـضـعـفـي الـبـشـري
مـثـلـي الـعـلـيـا وحـلـمـي وسـمـائـي
كـلـهـا أوهـــام قـلـب شـاعـري
هـكـذا قـالـوا فـمـا مـعـنـى بـقـائـي
رحـمـة الأقـــدار بـالـقـلـب الـشـقـي
لا أريــد الـعـيـش في وادي الـعـبـيـد
بـين أمـــوات وان لـم يـــدفـنـوا
جـثـث تـرسـف في أسـر الـقـيـود
وتمـاثـيـل احـتـوتـهـا الأعـيـن
أبـــداً أسـمـعـهـم عـذب نـشـيـدي
وهـــم نـــوم عـمـيـــق محــزن
لا يـظـنـوا أنـهـم قـد سـحـقـوه
فـهـو مـا زال جـمـالاً ونـقـاء
سـوف تمـضـي في الـتـسـابـيـح سـنـوه
وهـــم في الـشـر فـجـراً ومـسـاء

وفي قصيدة أخرى تقول:

جـسـدي في الألم خـاطـري في الـقـيـود
بـين هـمـس الـعـدم وصـراخ الـوجـود
وسـكـوني حـيـاة وظـلامـي بـريـق
الـنـجـاة الـنـجـاة مـن شـعـوري الـعـمـيـق
في دمـي إعـصـار عـاصـف بـالجـمـود
وشـظـايـا نـار تـتـحـدى الـركـود

وفي القاهرة -حيث كانت تقيم- وعن عمر يناهز الخمسة والثمانين عاماً توقف قلب نازك عن الخفقان.... لقد رحلت ولم ترحل إذ تركت للمكتبة العربية قصائد ومقالات ودراسات هامة جددت بها روحها وأغنت كيانها. كما تركت بصمةً مميزةً باعتبارها رائدة من روّاد الشعر العربي الحديث.

تلك هي نازك الملائكة الطفلة البريئة والروح المتمردة.

☆ ☆ ☆